مجلة الحكمة للدراسات الاسلامية
Eissn :2773-4471 Issn : 2353-043X
المجلد 13 / العدد: 01 (2026)، ص: 07-16

إعجاز القرآن . نظرة في كتاب إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي .

the inimitability of the noble Quran; An Analytical of Al-Rafi I s ijaz al-Quran wa al-balagha al-nabawiyya

بلكيف محمد[1]،

[1] جامعة الجزائر1 بن يوسف بن خدة (الجزائر)،

الإيميل المهني:

m.belkif@univ-alger.dz

تاريخ الاستلام: 2026/03/08 تاريخ القبول: 2026/04/20 تاريخ النشر: 2026/06/11

ملخص:

تعتبر بلاغة القرآن الكريم وإعجازه من بين المواضيع التي شُغِل بها علماء اللغة عموما وعلماء البلاغة خصوصا منذ القديم، لما وجدوه فيه من قوة في الأسلوب، وبيان لم يجدوه في غيره من الكلام، ولذا ألفوا الكثير من الكتب ليبرزوا فيها مكمن الإعجاز، ومواضع التميّز فيه عن غيره من الكلام، ولا يزال هذه ديدنهم إلى الأعصر الأخيرة، ومن هؤلاء العلماء الأستاذ مصطفى صادق الرافعي، الذي ألف كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" لِيدلي بدلوه في هذا الموضوع، وقد تناولنا في هذا المقال أهم المباحث التي أثارها الرافعي، وأظهرنا أهم الأفكار التي تطرق إليها وجوانب الإعجاز التي تكلم عنها من إعجاز علمي، إلى إعجاز بياني، وفي هذا الأخير تطرق الرافعي إلى عدة جوانب منها: الجانب الصوتي والجانب الأسلوبي وجانب التراكيب والجمل مبرزا أهم ميز أسلوب القرآن الكريم عن غيره من الكلام.

كلمات مفتاحية: القرآن، إعجاز، بلاغة، تركيب، أسلوب، الرافعي.

Abstract:

The eloquence and inimitability (I'jaz) of the Holy Qur'an have long been central themes for linguists and rhetoricians. This scholarly interest stems from the Qur'an's unparalleled stylistic power and clarity, qualities unmatched by any other form of discourse. Consequently, numerous treatises have been authored to illuminate the nature of its inimitability and the distinctive features that set it apart. This tradition has persisted through the modern era, exemplified by the scholar Mustafa Sadiq al-Rafi'i in his seminal work, "The Inimitability of the Qur'an and Prophetic Eloquence." This article examines the primary themes raised by al-Rafi'i, highlighting his core ideas regarding various facets of inimitability, ranging from the scientific to the rhetorical (al-I'jaz al-Bayani). In his analysis of the latter, al-Rafi'i explores several dimensions, including phonological aesthetics,

stylistic nuances, and syntactical structures, thereby demonstrating the fundamental characteristics that distinguish the Qur'anic style from all other modes of speech.
Keywords: The Qur'an, Inimitability (I'jaz), Rhetoric, Composition, Stylistics, Al-Rafi'i.

***المؤلف المرسل:** بلكيف محمد

1_ مقدمة:

لا يزال القرآن الكريم مصدرَ إعجابٍ ومبعثَ إعجازٍ، منذ أنزله الله عز وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم؛ ونفوس العرب تزداد منه تعجبا وله إعجابا وبه تأثرا، فهو -أي القرآن- لم يكن برهانَ نبوةٍ فحسب؛ بل كان منهجَ حياةٍ، ومصدر تشريعٍ وإلهامٍ، خاصة عند العرب الأوائل الذين كان لهم حظٌّ وافرٌ من العلم باللسان الذي اِختصهم الله به، وهكذا كلما وَفُرَ نصيب المرء من هذا العلم ازداد بهذا القرآن إعجابا وتأثرا وازداد له فهما وتدبرا، ولذلك ذهب العلماء يلتمسون منه مواضع الإعجاز، فألفوا في هذا الكتب تتلوا الكتب، كل حسب ما فتح الله له في هذا الباب، ولكثرة مواد إعجازه فقد اختلف العلماء رحمهم الله في طرائق التصنيف، ولعل أكثرها توفيقا ما كان مركزا على حقيقة الإعجاز ومادته الخام، ألا وهو الإعجاز اللغوي، وكان من أحسن من ألف فيه، حجَّةُ الأدب ورافعُ راية القرآن «مصطفى صادق الرافعي»[1]، ضمن كتابه «تاريخ آداب العرب» الذي أفرد الجزء الثاني منه لبيان إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية .

ثم إن الكلام على إعجاز [2] القرآن الكريم عند إمام البلغاء من المتأخرين السيد «مصطفى صادق الرافعي» كلامٌ يطولُ، والخائض فيه يحار من أي الوجوه يبدأهُ، وماذا يأخذ منه، وماذا يترك. وحسبنا في هذه البحث الوجيز أن نُنوّه بأمرٍ مهمٍ للغاية؛ هو أهم النقاطِ التي تفرَّد الرافعي بالكلام عليها في باب الإعجاز.

لقد تكلم الرافعي -رحمه الله- على إعجاز القرآن الكريم من وجوهٍ عديدة، من حيث مفرداته، وتأثيره في كلام العرب، وتكلم في الإعجاز السياسي والإعجاز النفسي والإعجاز العلمي والإعجاز البلاغي.. إلى أن وصل -حسب ما صرَّح- إلى غرض الكتاب ومقصوده. فأخذ في تفصيل ذلك عرضا وتحليلا، وكان مقصوده التركيز على قضية الإعجاز البياني وما لأسلوب القرآن الكريم من مزايا اختص بها دون غيره من الكلام. «ونحن الآن قائلون فيما هو الإعجاز عند علمائنا - رحمهم الله - وما وضعوه فيه من الكتب؛ ثم ما هي حقيقته عندنا؛ ثم نبسط الكلام فضلاً من البسط في إعجاز القرآن بأسلوبه وبيانه مما يماسُّ اللغةَ ويستطرق إليها...» [3].

ونحن الآن مُوقفوك على أهم ما جاء به الرافعي في بابة الإعجاز، وإنما قصدنا التلميح والتنبيه مع الإختصار.

2_ عرض شامل للكتاب:

جاء كتاب الرافعي في جزئين على الحقيقة، الأول في إعجاز القرآن الكريم، والثاني في البلاغة النبوية؛ لذلك فإن العنوان الكامل للكتاب هو إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية[4]، وهو كتاب من الحجم المتوسط، صنَّفه صاحبه كجزءٍ ثانٍ لكتابِهِ تاريخ آداب العرب[5]، تناول فيه جوانب عديدة تخص القرآن الكريم، لا تُعدُّ كلها من صميمِ الإعجاز، ولكنها تخدم موضوعَهُ خدمةً جليلةً، فقد استهلَّهُ بالحديث عن القرآن الكريم، وجمعه، ثم تحدث عن القراءات ووجوهها، ولغة القرآن، ومعنى أحرفه السبعة؛ وكما هو معلوم، فإنَّ هذه المباحث كلها تندرجَ ضمنَ علوم القرآن... ثم اِنتقل بعد ذلك إلى الحديث عن إعجاز القرآن الكريم في مفرداته وتراكيبه وأصواته، وما إلى ذلك مما سيأتي بيانه. كما تعرَّض لقضية التحدي والمعارضة، وقضية بلاغة القرآن الكريم، وما صُنِّف فيها طيلة ثلاثة عشر قرنا.

3_ وجوه إعجاز القرآن الكريم عند الرافعي:

يرى الرافعي أن القرآن الكريم قد أثَّرَ في اللغة العربية تأثيرا ليس له نظير، حتى إنَّ القائل ليقول إنها لغة جديدة، فقد ظهر إعجازه فيها بحيث جعلها مناسبة لكل زمان ومكان، وسبب ذلك أنه جعلها ملائمة مسايرة لهذا الكون في كل مظاهر الحياة، وهذَّبها من كل ما كان يشوبها ، وقد استعمل القرآن الكريم هذه اللغة استعمالا يجعل من أسلوبه معجزا في كل ألفاظه وتراكيبه، يقول -رحمه الله-: « وهو في كل جزء من أجزائه وفي أجزائه جملة لا يعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء، وبدلت الأرض غير الأرض، وإنما كان ذلك لأنه صفى اللغة من أكدارها، وأجزاها في ظاهرها على بواطن أسرارها»[6].

لم يأت القرآن الكريم بلغة جديدة، فاللغة هي اللغة، والمفردات هي المفردات، ولكنه ألبسها ثوبا جديدا، ستر عنها عيوب العصبية ، ومحى عنها أدران الجفاء ،و كساها جبة قشيبة زينتها الوقار ، و وشيها الجمال ،حتى ليخيل للسامع أنها لغة جديدة، ليست اللغة التي يعرفونها، «قد أظهرها مظهراً لا يُقضى العجب منه، لأنه جلاها على التاريخ كله لا على جيل العرب بخاصته، ولهذا بهتوا لها حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر أم صوت المستقبل أم صوت الخلود؛ لأنها هي لغتهم التي يعرفونها، ولكن في جزالة لم يمضغ لها شيح ولا قيصوم، ورقة غير ما انتهى إليهم من أمر الحاضرة»[7]. فلم تعد هذه اللغة، بعد نزول القرآن، عنوان بداوة جافية، ولا رمز عصبية قاسية، ولا دليل طبيعة على قوم مخصوصين، بل صارت تلائم كل طبع سليم، وتشدوا بكل عاقل حليم، وتصدق على أهل البادية كما تصدق على أهل الحاضرة، شاملة عامة لكل أنماط الحياة، وكل صنوف الناس، وما ذلك إلا من القرآن.

ورغم تعدد لغات العرب في الجاهلية واختصاص كل قبيلة بلغتها، وحرصهم على إبرازها أمام بعضهم البعض، إلا أن القرآن قد أنساهم كل ذلك، وجعلهم يتوجهون إلى لغة القرآن الكريم، في اِنبهار تام ناسين ما كانوا

عليه من تعصب للغاتهم، فالقرآن قد جمع العرب على لغة واحدة هي أرقى من جميع ما عرفوه من قبل؛ لقد أبهرهم أسلوب القرآن الكريم حتى أسرت قلوبهم ، فاعتاضوا بها عن لغاتهم التي كانوا قد ألفوها ودرجوا عليها، وأخذوا يحاولون النظم على منوالها، فتغيرت بذلك أشعارهم وخطبهم، وأصبحت تغرف من هذا البحر الزلال، و قد بين الرافعي هذا بقوله : «ومن المعلوم بالضرورة أن القرآن قد جمع أولئك العربَ على لغة واحدة، بما استجمع فيها من محاسن هذه الفطرة اللغوية التي جعلت أهلَ كل لسان يأخذون بها ولا يجدون لهم عنها مَرغَباً، إذ يرونها كمالاً لما في أنفسهم من أصول تلك الفطرة البيانية، مما وقفوا على حد الرغبة فيه من مذاهبها دون أن يقفوا على سبيل القدرة عليه»[8].

إن تأثُّر العرب بلغة القرآن الكريم يبدو جليا واضحا من خلال عقد مقارنة بسيطة بين تراثهم اللغوي شعرا ونثرا قبل وبعد الإسلام، وإنك إن قرأت أشعارهم تبيّن لك كيف أصبحوا يستعملون ألفاظ وتراكيب القرآن الكريم في أشعارهم، بل حتى في ألوان البيان من تشبيهات واستعارات وما إلى ذلك، كثير من ذلك أصبحوا يغرفون فيه من القرآن الكريم ويضمنونه أشعارهم، وأما الخطب فحدث ولا حرج، إذ أصبحت المقدمات تدبَّج بالبسملة والحمدلة والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصبح الخطيب منهم من أكثر الاستدلال فيها بالقرآن الكريم أو السنة النبوية.

4_ القرآن والعلوم:

لما كان هذا القرآن الكريم إلهي المصدر ، فإن عجائبه لا تنقضي ، و معجزاته لا تنتهي ، فظهرت في نظمه تارة و في شرائعه و أحكامه تارة وفي معجزاته العلمية تارة أخرى وهكذا ...فمن الأشياء المهمة التي كان الرافعي من السباقين إليها هو تطرقه للإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، فهو يراه سببا أولا في النهضة العلمية التي عرفها العرب، يقول: «فإنما كان القرآن أصلَ النهضة الإسلامية وهذه كانت على التحقيق هي الوسيلةُ في استبقاء علوم الأولين وتهذيبها وتصفيتها، وإطلاق العقل فيما شاء أن يرتعَ منها، وأخذِهِ على ذلك بالبحث والنظرِ والاستدلالِ والاستنباط، وتوفير مادة الرَّوية عليه بما كان سبباً في طلب العلم للعمل، ومزاولة هذا لذاك»[9].

فالقرآن قد حفظ للبشرية حضارتها، بما لعبه من دور في نقل العلوم من جيل إلى جيل آخر، ومن أمة إلى أمة أخرى، وبما لعبه من دور في تهذيب هذه العلوم وتنقيتها مما كان يمكن أن يعطل حضارة البشرية، أو يؤخر منها، كبعض ترهات اليونان والفرس، فلم يبق من العلوم إلا ما يخدم الحضارة الانسانية، ويدفعها إلى الأمام، وبما لعبه من دور في دفع نفوس أتباعه إلى البحث والتفكير وهجر حياة الجمود والفراغ.

5_ حقيقة الإعجاز عند الرافعي:

رغم تعدد وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ورغم ذكر الرافعي لكل هذه الوجوه، إلا أنه يرى أن حقيقة الإعجاز متركزة في جانب معين، وإنما بقية الجوانب مكملات، فهو يعتبر . أي الرافعي ـ هذا المبحث أهم عناصر

الإعجاز، بل يعتبره غاية الكتاب، وحقيقة الإعجاز، يقول: «وهذا هو الغرضُ الذي أردنا إليه الكلامَ في كل ما مرَّ من هذا الباب جهة إلى جهة، وأرَغْنا معانيه فصلاً إلى فصل، وخُضنا في ضروبه معنى إلى معنى» [10].

ولما كان الإعجاز من المسائل التي اختلف فيها المفكرون، وتعددت فيها الآراء حسب اختلاف المشارب وتباين المآخذ، وأدلى كل واحد منهم فيها برأيه، وقد خاض كثير من المفكرين قديما في حقيقة الإعجاز وماهيته، فمنهم من قال بالصرفة ومنهم من قال بأن مكمن الإعجاز في الإخبار عن الغيب ماضيا ومستقبلا، ومنهم من قال إنه معجز بتشريعه ونظمه السياسية والاجتماعية والأخلاقية، كان من حق الرافعي أن يضرب معهم بسهم، حيث يرى أن حقيقة الإعجاز هي عجز القدرة البشرية على الإتيان بمثله، وقد وضح حقيقة الإعجاز في نظره بقوله: «أن القرآن معجز بالمعنى الذي يُفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، حين ينفى الإمكان بالعجز عن غير الممكن، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغاً وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة؛ وإنَّما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية، ... وإنَّما مذهبنا بيانُ إعجازه في نفسه من حيث هو كلام عربي. لأننا إنما نكتب في هذه الجهة من تاريخ الأدب دون جهة التأويل والتفسير» [11].

إذن الاعجاز الحقيقي كائن في جهة معينة هي جهة الكلام نفسه، و لا غرابة فالقرآن كلام ، والعرب أهل لسان ،و المعجزة تأتي عادة من جنس ما يحسنه من قُصِدَ إعجازه، أو بالأحرى من جنس ما يختص فيه من قُصِدَ إعجازه، بل من عجيب الأمر أن هذا القرآن نزل في زمن قد بلغ فيه أهله ذروة الفصاحة و قمة البلاغة، كما نزل في أناس تميزوا بين قومهم بالسبق في هذا الميدان، فقريش لم تكن تدانيها قبيلة في فصاحة و لا بلاغة، بل كانت تعقد في منصات أسواقها مفاخرات الشعراء، وملاسنات الخطباء، فأراد الله عزو جل أن يظهر عجزهم مع هذا كله و في كل هذا .

و على هذا الأساس فقد تحدَّى الله عز وجل العرب أن يأتوا بمثل القرآن فصاحة وبلاغة، حتى أعجزهم عن ذلك و أقروا بعدم قدرتهم على مجاراة أمر لا قبل لهم به، وإن كانوا من قبل يعتقدون أنهم هم أرباب هذه الصنعة وفرسان هذا الميدان ،يقول الرافعي : «فتحداهم القرآن في آيات كثيرة أن يأتوا بمثله أو بعضه، وسلك إلى ذلك طريقاً كأنها قضية من قضايا المنطق التاريخي، فإن حكمة هذا التحدي وذكرهِ في القرآن، إنما هي أن يشهد التاريخ في كل عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللدُّ والفصحاء اللسن، وهم كانوا في العهد الذي لم يكن للغتهم خير منه ولا خير منهم في الطبع والقوة، فكانوا مَظنةَ المعارضة والقدرة عليها .... » [12].

وإمعانا في المعارضة فقد كان التحدي على مراحل، وكأن القرآن أراد من العرب أن يقروا بهذا العجز صاغرة نفوسهم، المرة تلو المرة، فكلما عجزوا عن مرحلة إلا وزادهم فوقها درجة فبدأ بتحديهم في أن يأتوا بمثل هذا القرآن، فلما عجزوا طالبهم بأن يأتوا بعشر سور مفتريات، فلما عجزوا رفع التحدي إلى أعلى مراتبه، فطالبهم بأن يأتوا بسورة واحدة، فاستمر العجز ولجأوا بعدها إلى ما لجأوا إليه من التهم والشتم وغيرها.

6_ أسلوب القرآن الكريم:

يرى الرافعي أن الأسلوب هو مادة الفخر في كلام العرب، وعلى ذلك فمن البديهي أن يأتي القرآن بأسلوب أرقى وأعلى من أسلوبهم، حتى يتحقق معنى الاعجاز على حقيقته، وموطن الإعجاز فيه أنه جاءهم بأسلوب يعرفون ألفاظه وكلماته، ويتقنون قواعده ونظامه النحوي والصرفي، غير أنه نظمه على غير ما يعوفون من طرق النظم، وركبه على غير ما عهدوه من طرق التركيب، فهو ليس بشعر وليس بنثر، ولكنه ضرب من النظم جديد لا يعرفونه، بل حتى في اختيار الكلمات والحروف وتنسيق ما بينها قد جاءهم بضرب لم يعهدوه، مما جعلهم يذهلون في أنفسهم هيبة له وإعجابا به وإعظاما لشأنه، حتلا أقروا بالعجز، واستسلموا للواقع، وأذعنوا للحق، يقول الرافعي: « ورأى بلغاؤهم أنه جنس من الكلام غير ما هم فيه، وأن هذا التركيب هو روح الفطرة اللغوية فيهم، وأنه لا سبيل إلى صرفه عن نفس أحد العرب أو اعتراض مساغه إلى هذه النفس، إذ هو وجه الكمال اللغوي الذي عرف أرواحهم واطلع على قلوبهم»

نعم، لقد كان القرآن الكريم على هذا النحو أو فوقه، بما جاء به من أسلوب أرقى بكثير مما ألف العرب من كلام بلغائهم وفصحائهم، ومرد ذلك كما يرى الرافعي إلى أن الأسلوب مترجم لنفسية صاحبه، فما اختلاف الأساليب إلا ضرب من اختلاف النفسيات، فأنت تجد الكاتب قد عكف على كلام كاتب آخر ما ترك له حرفا إلا وقد حلله وعرضه على النظريات النقدية محاولا تفسيره و تخريجه، وقد يكون على درجة كبيرة من الاعجاب به، وقد يكون صاحب الكلام من أساتذته ومعلميه، ومع ذلك إذا حاول أن يجاريه في أسلوبه وجدت بين الرجلين من البون و الفرق الشيء الكثير، و ما ذلك إلا لأن بين النفسيتين اختلافا كبيرا، و لما كان القرآن الكريم منزها عن هذه الطباع البشرية، كان أسلوبه خارجا عن ضروب أساليب البشر، وذلك أن كل كلام بشري يحتكم إلى أحوال نفسية ونوازع ذاتية تأبى إلا أن تنطبع في أسلوب ولغة صاحبها، وهذا ما ليس موجودا في القرآن الكريم لأنه ليس من انتاج البشر.

ولعل هذا الأمر محل اتفاق بين الكثير من الدارسين للأدب والبلاغة، خاصة من المعاصرين حتى قيل حديثا إن الأسلوب هو بمثابة بصمة الأصبع، ولذلك استحال على العرب، بل ويستحيل على البشرية أن تأتي بمثل هذا القرآن لأنه ليس من قبيل أساليبها النابعة من نفسياتها.

7_ نظم القرآن:

لما كان الكلام ينتظم من ثلاثة: حرفٍ و كلمةٍ وجملةٍ، كان لا بد أن يظهر إعجاز القرآن الكريم في كل قسم من هذه الأقسام، وظهور الإعجاز في هذه الثلاثة مجتمعة و في آن واحد هو ما جعل علماء العرب يركزون على قضية النظم ،و اعتبروها من أظهر وجوه الاعجاز ، وقد تطرق إليها الرافعي، و تناولها بما يخص القرآن الكريم دون غيره من كلام البلغاء، ومع ذلك يذهب الرافعي في قضية النظم مذهب كبار البلاغيين أمثال الجرجاني، و الباقلاني وهو يرى أن نظم القرآن مخالف لنظم كل كلام، و بلاغته أرقى من كل بلاغة، ولذلك تميز عنها تميز المتكلم به عن

مخلوقاته، فكل عبارة وكل كلمة وكل حرف يقتضي موضعه الذي فيه، بل لا يمكن ان يعتاض به غيره في ذلك الموضع ولو كان بمعناه أو قريبا منه.

وقد ابتدأ الرافعي قضية نظم القرآن بالحديث عن الحرف والصوت، فأظهر ما للحرف من إعجاز في صوته ومخرجه، وكل حرف في القرآن الكريم اختير له الموضع الذي لا يصلح له إلا ذلك الحرف، فالترابط اللفظي والمعنوي الذي يؤديه ذلك الحرف في ذلك الموضع لا يمكن أن يؤديه غيره.

ولذلك كان من معجزة القرآن أنه يسترق العقول ويأسر القلوب بما يقذفه من جرس في الآذان، وبما يلقيه من حلاوة على المسامع، فتطرب النفس عند سماعه في خشوع ورهبة، فلا هي تستكره منه حرفا، ولا هي تستهجن منه وقعا، ولا تستطيع إلا أن تستسلم له وتسترسل في سماعه، ولا تجد في حروفه وكلماته ما يمكن ان يطرأ على كلام أعلى البلاغيين فصاحة وبيانا من التنافر والركاكة أحيانا، ولذلك استصاغته الأسماع، وأشربته القلوب، لما في حروفه من تناسق، ما في أصواته من عذوبة تأسر القلوب وتسترِقُّ الألباب.

ثم لا شك أن الله علم أن هذه النفس . وهو خالقها . تنفر مما يصخب عليها ويكدر صفوها وتنجذب نحو ما يؤنسها فجاء القرآن الكريم على ذلك، ومما تجدر الاشارة إليه أن القرآن قد راعى قضية الصوت مراعاة كبيرة، ولذلك تجده يستعمل الحرف على ما يقتضيه موضوع الآية، وبالجملة فإن نظم القرآن على مستوى الصوت جاء غاية في الإحكام كأنها قطعة واحدة.

الكلمات وحروفها:

كان للكلمة نصيبها من الاعجاز في القرآن الكريم إذ لا يتأتى النظم إلا بها، وموقعها من النظم موقع خطير، ذلك أن الكلمة لها تأثير كبير في النفس الانسانية، وهذا أمر ملاحظ لا حاجة إلى التدليل عليه، فكان من بلاغة القرآن الكريم أن اختار لكل معنى كلمة هي أحسن كلمة تؤدي ذلك المعنى، لا تقوم كلمة أخرى مقامها ولو كانت من مرادفاتها أو قريبة منها، و على هذا الشأن جاء القرآن كله، وقد أكد الرافعي أن القرآن يراعي معاني الجمل ويستعمل في كل جملة ما يلائمها من ألفاظ اللغة، بحيث لا تنِدُّ لفظة، ولا تتخلف كلمة؛ ثم يستعمل أقربها إلى ذلك المعنى، وأفصحها في الدلالة عليه، وأبلغها في التصوير، وأحسنها في النسق، وأبدعها سناء، وأكثرها غناء، وأصفاها رونقاً وماء، ثم اطراد ذلك في جملة القرآن على اتساعه وما تضمن من أنواع الدلالة ووجوه التأويل.

ثم إن هذا الضرب من الاعجاز لم يقف عند هذا الحد بل تعداه حتى صارت اللغة كأنها غير اللغة، بل صارت اللغة أعلى وأرقى مما هي عليه، وما ذلك إلا بطريقة الاستعمال وحسن الاختيار، وموافقة اللفظ للمعنى، وموافقته للصوت الصرفي، ثم موافقة الكلمة لما يجاورها، لا في المعنى حسب، بل في المعنى وفي النظم الموسيقي، ويضرب لذلك الرافعي مثالا بكلمة (النُذُرُ) وهي جمع نذير؛ الواردة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (36)﴾. فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً، إضافة إلى ما بين هذه الحروف من تنافر وتقارب في المخارج، مما يجعلها ثقيلة في النطق، أما إذا تأملتها في هذا التركيب فإنك تجد فيها من الخفة والسلاسة ما ينسيك هذا التنافر والثقل.

فإن المتأمل لهذه الحروف يلتمس فيها تجانسا رائعا، وتناسقا بديعا، خاصة إذا أضفت إلى ذلك مواضع القلقلة في دال (لقد)، وفي الطاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تماروا)، مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات إذا هي جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة عليه مستخَفاً بعد، ثم تأمل جيدا في الراء من (تمارَوا) فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء (النذر) حتى إذا انتهى اللسان إلى هذه انتهى إليها من مثلها، فلا تجف عليه ولا تغلظ ولا تنبو فيه، ثم أعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون (أنذرَهم) وفي ميمها، وللغنة الأخرى التي سبقت الذال في (النذر).

ومن وجوه الاعجاز في هذا الباب، أنك لا تجد في القرآن حشوا ولو بحرف واحد، فضلا عن كلمة، وقد نبه الرافعي إلى ذلك تحذيرا مما قد يتبادر إلى الذهن من اصطلاحات بعض النحويين، وهو يعني هنا ما يطلق عليه النحاة وصف الزائد، نحو قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾. وقوله: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ فإن النحاة يقولون إن " ما " في الآية الأولى و " أن " في الثانية، زائدتان، أي في الإعراب. وقد بين ال الرافعي الغرض من ذلك، وأزال الشبهة من الأذهان القاصرة التي لا يرقى فكرها إلى المغزى مكن ذلك، فيخلط بين اصطلاحات النحاة وبين أغراض البلاغة ومرتب البيان، ثم بين أن في هذه الزيادة لوناً من التصوير لو هو حذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته، فإن المراد بالآية الأولى، تصويرُ لِين النبي - صلى الله عليه وسلم - لقومه، وإن ذلك رحمة من الله، فجاء هذا المد في " ما " وصفاً لفظياً يؤكد معنى اللين ويفخمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تُشعر بانعطاف وعناية لا يُبتدأ هذا المعنى بأحسن منهما في بلاغة السياق، ثم كان الفصل بين الباء الجارَّة ومجرورها (وهو لفظ رحمة) مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى وينبه الفكر على قيمة الرحمة فيه، وذلك كله طبعي في بلاغة الآية كما ترى.

والمراد بالثانية تصويرُ الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه لبعد ما كان بين يوسفَ وأبيه عليهما السلام وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب تؤكدهما وتصف الطربَ لمقدمه واستقراره، غُنةُ هذه النونِ في الكلمة الفاصلة؛ وهي " أن " في قوله: " أن جاء ".

8_ الاعجاز في الجمل والتراكيب:

ليس باب الجمل والتراكيب بأقل شأنا من سابقَيْهِ في أهمية النظم القرآني ولا في درجة القوة البلاغية، ولذلك ثلَّثَ به الكاتب فبين أن القرآن الكريم قد أتى على نسق في التركيب غاية في الابداع والحُسن.

إن نظام التراكيب الذي جاء به القرآن الكريم يختلف كل الاختلاف عما عهده العرب من نظام، رغم أن اللفظ واحد، ولكن مكمن الاعجاز هو ذلك التركيب البديع، فإنك مهما قلبت هذه الفاظ وغيرت من مواقعها فلن تجد لها أحسن من ذلك الموضع الذي وضعها فيه القرآن.

وإن التناسق الكبير في تركيب الجمل واحد من مظاهر هذا الاعجاز، وليس هذا التناسق مقصورا على جزء من القرآن دون غيره، بل هو السمة البارزة لكل آيات القرآن من أوله إلى آخره، وهذا ما أكد عليه الرافعي بقوله: «فأنت ما دمت في القرآن حتى تفرغ منه، لا ترى غير صورة واحدة من الكمال وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب وموضع التأليف وألوان التصوير وأغراض الكلام».

ثم إن القرآن الكريم قد جاء على وضع لم تألف العرب وضعا مماثلا له، لا من حيث حسن التأليف ولا من حيث الدلالة على المعاني المرادة في أحسن صورة.

على أن هذه الألفاظ هي نفس الألفاظ التي كان يعرفها الناس، بيد أن تركيبها في القرآن يجعلها متميزة عن غيرها من الكلام، حتى إن كثيرا منها قد سار مسيرة المثل، فكان القرآن بهذا مصدر الاقتباس، ومنه يؤخذ التمثيل والاستعارة وسائر ألوان البلاغة، حتى كان السبب في ظهور علم البلاغة كما يرى ويصرح به الرافعي.

هذا ملخص ما ذكره الرافعي رحمه الله في إعجاز النظم القرآني في مستوياته الثلاثة، مستوى الحرف ومستوى الكلمة ومستوى الجملة، وهذا ملخص ما ذكره جملة حول إعجاز القرآن الكريم.

9_ خاتمة

يعتبر كتاب الرافعي «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» كتابا شاملا لكل أنواع الإعجاز، مع قوةٍ أسلوبه، ورصانة لغته، فهو يسوق لك كلام الأولين بطريقة المعاصرين، ويسوق لك طريقة المتأخرين بأسلوب الأولين.

وقد أبدع في كتابه هذا أيما إبداع، وأحسن تقسيمه، وتبويبه، وأفاض فيه وإستفاض، وجمع فيه أغلب ما قال العلماء قبله، وما هذه إلا نظرة سريعة في هذا الكتاب.

[1]) مصطفى صادق الرافعي(1881-1937م): عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكتَّاب. له ديوان شعر (3أجزاء)، وكتاب «تاريخ آداب العرب» (3أجزاء)، و«تحت راية القرآن» رد فيه على مقالات للدكتور طه حسين، و«وحي القلم» (3أجزاء)، وغيرها من المؤلفات.

[2]) شاكر محمود محمَّد، مداخل إعجاز القرآن. ص8، طبعة المدني.

[3]) الرافعي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص98.دار الكتاب العربي.

[4]) طُبِعَ الكتابُ على حدى سنة 1927م، حيثُ تكفَّلَ الملك فؤاد بنفقات الطباعة. [راجع «رسائل الرافعي».الرسالة100.ص135.طبعة الدار العمرية].

[5]) الرافعي مصطفى صادق، «رسائل الرافعي». الرسالة100.ص135.طبعة الدار العمرية

[6]) الرافعي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية». [ص55].دار الكتاب العربي.

[7]) الرافعي مصطفى صادق، « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»..[ص55]

[8]) الرافعي مصطفى صادق، « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»..[ص57]

[9]) الرافعي مصطفى صادق، « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»..[ص81]

[10]) الرافعي مصطفى صادق، « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»..[ص98]

[11]) الرافعي مصطفى صادق، « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»..[ص109]

[12]) الرافعي مصطفى صادق، « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»..[ص117-118]

قائمة المصادر والمراجع:

1- محمود محمَّد شاكر، مداخل إعجاز القرآن، طبعة المدني.
2- الرافعي مصطفى صادق، رسائل الرافعي، طبعة الدار العمرية
3- الرافعي مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي.